الباب الأول

حيـاتــه

الفصل الأول : نشأته
الفصل الثاني : خصائص عصره
الفصل الثالث: سلوكه ومجاهداته

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

نشـأتـــه

اسمه ونشأته :

ساق المترجمون للحكيم الترمذي والناسخون لكتبه اسمه ولقبه وكنيته ، واتفقوا جميعًا على أنه «محمد بن علي» وأنه يلقب «بالحكيم والترمذي» مع تقديم أو تأخير بين اللقبين ، وأنه يكنى «بأبي عبد الله» ، ولكنهم اختلفوا فيما بعد ذلك من نسبه ، فبعضهم يكتفي بما ذكر ، والبعض الآخر يسوق الاسم إلى ذكر جده الأول ، أو إلى ذكر جده الأول والثاني ، ويختلفون في اسم كل منهما، فأبو عبد الرحمن السلمي يذكر في طبقاته جده الأول فحسب ، ويذكر أنه الحسن قائلاً[1] : «ومنهم محمد بن علي الترمذي . وهو محمد بن الحسن ، وكنيته أبو عبد الله» ، بينما يذكره الشعراني في طبقاته الكبرى على أنه الحسين فيقول[2] : «ومنهم أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسين الترمذي الحكيم» ، ويتابع السبكي في طبقات الشافعية[3] ، وأبو نعيم في الحلية[4] السلميَّ في أن جده الأول هو الحسن ، ويذكر السبكي أيضًا اسم جده الثاني فيقول : «محمد ابن علي بن الحسن بن بشر المحدث الزاهد أبو عبد الله الحكيم الترمذي».

ويختلف النساخ لكتبه في اسم جده الأول أيضًا ، ففي مقدمة كتابه «نوادر الأصول» يقول : «نوادر الأصول في معرفة أخبار الرسول لأبي عبد الله محمد ابن علي بن الحسين بن بشير المؤذن الحكيم الترمذي» وذلك متابعة

---

(١) طبقات الصوفية ص ٢١٧ .
(٢) ص ٧٨ .
(٣) جـ ٢ ص ٢٤٥ .
(٤) جـ ١٠ ص ٢٣٣ .

لما في الكتاب نفسه في الأصل الأول ، كما هو مذكور أيضًا في بداية كتابه «علم الأولياء» ، المحفوظ في مكتبة خراجي أوغلو[1] بدون لفظ الحكيم الترمذي ، وفي بداية «باب صفة العلم في الأسماء والحروف المعجمة»[2]، بينما يستهل كتابه «ختم الأولياء» بقوله : «قال الإمام أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن ابن بشير الحكيم الترمذي ، ونقرأ في صفحة العنوان لكتابه «علم الأولياء» المحفوظ بدار الكتب المصرية[3] : «تأليف الإمام العالم العلامة أبي عبد الله محمد بن علي بن حسن الحكيم الترمذي» ، وفي مستهل كلامه «على معنى لا إله إلا الله»[4] : «قال الشيخ الإمام العالم العامل أبو عبد الله محمد بن علي ابن الحسن الترمذي» ، وفي مستهل كتاب الرياضة : «قال أبو عبد الله محمد ابن علي بن الحسن الترمذي» وفي صفحة العنوان لكتابه «تحصيل نظائر القرآن» يقول : «تأليف أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشر الزاهد المؤذن الفقيه كبير الشافعية بالعراق الشهير بالترمذي الحكيم»، ونلاحظ أن ذكره على أنه هو الحسن هو المعظم الغالب في مقدمات كتبه ورسائله .

وكما وقع الخلاف في اسم جده الأول ، بين الحسن والحسين ، وقع الخلاف في اسم جده الثاني بين بشر وبشير ، فقد لاحظنا أن السبكي يذكر أنه بشر ، وكذلك ذكر في كتاب «ختم الأولياء» وكتاب «تحصيل نظائر القرآن» ، وأخذ بذلك أربرى والدكتور علي حسن عبد القادر في مقدمتهما لكتابي «الرياضة وأدب النفس» وكذلك الدكتور عثمان إسماعيل يحيى في مقدمته لكتاب «ختم الأولياء» ، بينما يذكره في «لسان الميزان»[5] على أنه

---

(١) عن الدكتور عثمان يحيى في فهرسه الذي نشره في
Mélange L. Massignon III PP. 411-480.

(٢) ص ١ من مخطوط الجمعية الأسيوية في كلكتا رقم ١٠٥٦ .

(٣) تحت رقم تصوف ٦٩٤ مجاميع طلعت .

(٤) نفس المخطوط .

(٥) لأبي الفضل أحمد بن حجر العسقلاني . جـ ٥ ص ٣١٠ .

«محمد بن علي بن الحسن بن بشير الترمذي المؤذن المعروف بالحكيم أبو عبد الله» واتفق معه في ذلك كاتب المقدمة لكتاب «نوادر الأصول»، وأخذ بذلك الدكتور عبد المحسن الحسيني في تقديمه لكتاب «حقيقة الآدمية للحكيم الترمذي» الذي نشره بتحقيقه[1]، بل أكثر من ذلك نجد على نسخة مخطوطة «لنوادر الأصول»[2] «شير» بدلاً من «بشر أو بشير» وكذلك على نسخة كتابه «المسائل المكنونة» المحفوظ في الإسكندرية[3].

وعلى الرغم من أن الحكيم الترمذي قد روى الحديث عن أبيه فإننا لا نكاد نعثر لأبيه على ترجمة في كتب التراجم والرجال، حتى نتحقق من صحة الاسم، اللهم إلا «تاريخ بغداد»[4] حيث ذكر أنه روى الحديث، وأنه تلقى عن بعض من تلقى عنهم الحكيم، فيقول: «علي بن الحسن بن بشير بن هارون الترمذي، حدث ببغداد عن شداد بن حكيم، وصالح بن عبد الله الترمذي» والحكيم يروي عن صالح هذا بين من يروى عنهم، وكلهم ترمذي، وكلهم يروي الحديث، لذلك فمن الراجح أنه هو أبو الحكيم، فإن صح ذلك يكون الحكيم هو: أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن بشير بن هارون الحكيم الترمذي.

أسرته:

لا نكاد نعرف كثيرًا عن أسرة الحكيم الترمذي إلا ما ورد من ترجمة أبيه علي بن الحسن ين بشير بن هارون الترمذي في كتاب «تاريخ بغداد»، وما يرويه الحكيم نفسه من الأحاديث عن أبيه، مما يدل على أن أباه كان مشتغلاً بطلب الحديث وروايته، وقد ورد له سند في هذا الكتاب، إذ يروي عنه محمد بن مخلد العطار فيقول: حدثنا علي بن الحسن بن هارون

---

(١) في مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية. الثالث سنة ١٩٤٦ ص ٥٤.
(٢) دار الكتب المصرية تحت رقم ن خ ٨١ ن ع ٦٧٩٩.
(٣) فنون منوعة ١٤٥ ح. ومصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٢٨٢ ج.
(٤) لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي جـ ١١ ص ٣٧٣.

أخبرنا شداد بن حكيم حدثنا عباد بن كثير عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ .

ويذكر فريد الدين العطار في كتابه «تذكرة الأولياء» أن أبا عبد الله فقد والده وهو صغير[1] ، ولكن ذلك غير صحيح ، لأنه يروي بعض أحاديثه عن أبيه : ويبدو أن ذلك مجرد استنتاج من فريد الدين العطار ، أوقعه فيه ما رواه من «إنه كان قد عقد النية في أول أمره ـ أي الحكيم الترمذي ـ على الرحلة لطلب العلم في رفقة اثنين من إخوانه ، وفي أثناء ذلك مرضت أمه ، فقالت له : يا بني، إني امرأة ضعيفة لا عائل لي ولا معين يعينني ، وإنك المتولي لأمري ، فإلى من تكلني وتذهب ؟ فنالت هذه الكلمات من نفسه ، وعدل عن الرحلة ، ومضى زميلاه في سبيلهما».

«ثم مضى على ذلك بعض الوقت ، فبينما كان في إحدى المقابر يبكي بكاء شديدًا ويقول : هأنذا قد بقيت جاهلاً مهملاً ، وسيرجع أصحابي وقد حصلوا العلم ، إذ به يرى أمامه فجأة شيخًا مشرق الوجه ، فسأله الشيخ عن سر بكائه ، فأفضى إليه (الفتى) بحاله ، فقال له الشيخ : ألا أعلمك في كل يوم شيئًا من العلم ، فلا يمر عليك كثير وقت حتى تسبق إخوانك ؟ فأجابه الفتى إلى ذلك».

«استمر الشيخ على تعليمه كل يوم ، ومضت على ذلك أعوام ، ثم عرف (الترمذي) بعد ذلك أن الشيخ هو الخضر عليه السلام ، وأنه إنما حصل على هذا ببركة دعاء أمه...»[2].

ولكن هذه القصة لا تدل صراحة أن ذلك كان أثناء طفولته ، حتى يصح أن تستنتج أن أباه قد مات وهو صغير ، بل قد تشير في ثناياها إلى أن ذلك

---

(١) نقلاً عن مقدمة الدكتور علي حسن بعد القادر وأربري لكتاب الرياضة وأدب النفس ص٧ .

(٢) نقلاً عن مقدمة الدكتور عثمان يحيى لكتاب ختم الأولياء ص ١٠ .

قد حدث بعد أن شب وأيفع وأصبح كفئًا للرحلة ، ولرعاية أمه ، وأصبح يرتاد المقابر والخلوات ...

وسواء كانت هذه القصة صحيحة أو من صنع الخيال ، فإنها تعطينا ملامح قليلة عن أسرته ، إذ يبدو أنه كان وحيد والديه ، وأنه لم يكن لأمه حينئذ عائل غيره ، وأنه لذلك ضحى بأمنية عزيزة من أمانيه ، وهي الرحلة في طلب العلم ، وظلت هذه التضحية تؤلمه وتقضه إلى درجة كبيرة يبكي من أجلها حين يخلو بنفسه بكاء شديدًا ، وإن يكن الله قد عوضه عن تضحيته خيرًا ببركة دعاء أمة الضعيفة الوحيدة .

كذلك يعطينا الحكيم في رسالته التي يترجم بها لنفسه صورة كريمة عن زوجة صالحة تفيض بالإخلاص والطهارة والتقوى ، مما كان له ـ دون شك ـ كبير الأثر في حياته الروحية[1].

وكما ذكر لنا زوجه في ترجمته لنفسه ، فإنه ذكر في رسالة أخرى أنه قد ولد له ستة أولاد[2] ، ولم نعرف عنهم إلا ما رواه فريد الدين العطار من أن أبا عبد الله تزوج وأنجب أولادًا ، ثم يقص علينا أن أولاده سئلوا : كيف حال أبيهم عندما يغضب ؟ فقالوا : إننا نعرفه عندما كان يغضب ، فإنه يكون أكثر حنانًا وأشد عطفًا ، كان يكف عن الطعام والشراب ، وينتحب ويقول : يا مولاي ، كيف أغضبتك حتى جعلتهم يغضبونني ، تبت إليك يا مولاي فأصلح حالهم[3].

وإذا لم نأخذ هذه القصة مأخذ الصحة التامة ، فإنه ينبغي أن نأخذ بما تضمنته من إشارة إلى علاقة الشيخ بأولاده . وكانوا غير نابهي الشأن بحيث أغفل ذكرهم ما اطلعنا عليه من كتب التاريخ .

---

(١) انظر في ذلك أيضًا الدكتور عثمان يحيى في مقدمته لكتاب ختم الأولياء ص ١٢ .
(٢) في مسألة من مسائله في مخطوطة ليبزج ١٦٨ أ .
(٣) نقلاً عن الدكتور علي حسن عبد القادر وأربري في مقدمتهما لكتاب الرياضة وأدب النفس ص١٠ .

مولده :

وكما اختلفت كتب التراجم في تحقيق اسمه ونسبه كاملاً ، اختلفت في تحقيق تاريخ ميلاده ووفاته بل أهمل الكثير منها التعرض لهذه الناحية ، ولم يجزم واحد منها على تاريخ محدد ، وإن اتفقت جميعًا على أنه ولد في أوائل القرن الثالث الهجري ، وما عدا ذلك فاختلاف كبير لا يسهل التقريب فيه ، وإن أمكن استبعاد بعض هذه الروايات لعدم دقتها ، فإنه يتبقى بعد ذلك روايات أخرى يمكن التوصل بمقارنتها بعضها مع بعض إلى أقرب التواريخ دقة من ناحية مولده ووفاته .

فالذهبي في تذكرة الحفاظ[1] يذكر أنه رحل إلى نيسابور سنة خمس وثمانين ومائتين ، وأنه عاش حتى بلغ الثمانين ، ومعنى ذلك أنه ولد على التقريب سنة خمس ومائتين .

وابن حجر العسقلاني يذكر في لسان الميزان[2] أن الأنباري سمع منه [من الحكيم] سنة ثماني عشرة وثلاثمائة ، وأنه عاش حتى بلغ التسعين ، ومعنى ذلك أنه ولد على وجه التقريب سنة ثلاثين ومائتين .

ورواية الذهبي ـ كما نرى ـ لا تتعارض مع رواية ابن حجر ، بل تمهد لها وتساندها ، لكن الاستنتاج بأنه ولد على وجه التقريب سنة ثلاثين ومائتين معارض بما ورد في كتب التراجم من أنه ولد في أوائل القرن الثالث ، ومن أنه صحب أبا تراب النخشبي ، وأحمد بن خضرويه الصوفيين المشهورين ، ومن أنه روى عن قتيبة بن سعيد الثقفي ، وعن صالح بن عبد الله الترمذي ، وعن الحسن بن شقيق البلخي ، فمن الملاحظ أن أبا تراب النخشبي توفي عام خمسة وأربعين ومائتين[3] ، وأن أحمد بن خضرويه[4] وقتيبة بن سعيد[5]

---

(١) جـ ٢ ص ١٩٧ .
(٢) جـ ٥ ص ٣٠٨ .
(٣) السلمي : طبقات الصوفية ص ١٤٦ .
(٤) المصدر السابق ص ١٠٣.
(٥) البغدادي : تاريخ بغداد جـ ١٢ ص ٤٦٤ .

قد توفيا عام أربعين ومائتين ، وأن صالح بن عبد الله الترمذي[1] قد توفي عام نيف وثلاثين ومائتين ، ويقال إن الحسن بن عمر بن شقيق قد توفي عام ثلاثين ومائتين[2].

فإذا كان الحكيم الترمذي قد ولد حوالي عام ثلاثين ومائتين كان معنى ذلك أنه بلغ من العمر عشر سنين وقت وفاة أحمد بن خضرويه وقتيبة ابن سعيد ، وخمسة عشر عامًا عند وفاة أبي تراب النخشبي ، وإذا أمكن أن يتحمل الحديث في هذه السن ، بصورة من صور الاحتمالات ، فكيف تثبت صحبة الطريق والسلوك في مثل هذه السن ؟

ثم إذا علمنا ـ كما سنذكر فيما بعد ـ أن الحكيم الترمذي لم يتجه الاتجاه الصوفي إلا بعد أن تجاوز السابعة والعشرين من عمره ، وأن هذه الصحبة لا بد أن تكون قد وقعت له بعد هذه السن ، أمكن لنا أن نستنتج ـ باستخراج هذه الأعوام السبعة والعشرين من الأربعين ومائتين التي توفي فيها أحمد ابن خضرويه ـ أن الحكيم الترمذي كان موجودًا عام ثلاثة عشر ومائتين ، وإذا أضفنا أن هذه الصحبة استمرت عامًا أو عامين أو أكثر ، لأمكن لنا أن نستنتج ـ بأقل وجوه التقريب ـ أنه قد ولد قبل عام عشرة ومائتين[3].

هذا يتفق مع ماذكرته التراجم من أنه ولد في أوائل القرن الثالث الهجري، ومع ما استنتجه الذهبي ـ بعد أن أورد أنه رحل إلى نيسابور عام خمسة وثمانين ومائتين ـ من أنه عاش حتى بلغ الثمانين ، إذ معنى ذلك أنه ولد عام خمسة ومائتين للهجرة .

من الممكن ـ إذن ـ أن نتفق مع الذهبي فيما يخص تاريخ ميلاده ، وأن نتفق مع ابن حجر فيما يتعلق بتاريخ وفاته ، لا سيما إذا عارضنا ذلك بما

---

(١) البغدادي : تاريخ بغداد جـ ٩ ص ٣١٥ . (٢) المصدر السابق جـ ٧ ص ٣٥٥ .

(٣) راجع عبد المحسن الحسيني في مقدمته لكتاب « حقيقة الآدمية » . مجلة كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية الثالث سنة ١٩٤٦ .

ذكره فريد الدين العطار في كتابه «تذكرة الأولياء» من أنه عاش مائة وخمسة عشر عامًا[1]، فإذا فرضنا أنه قد توفي عام عشرين وثلاثمائة ـ كما ذكره بعض الباحثين المعاصرين[2]، وكما أخذنا من رواية ابن حجر ـ وأنه كان قد بلغ الخامسة عشر بعد المائة ـ كما ذكر فريد الدين العطار ـ كان معنى ذلك أنه قد ولد عام خمسة ومائتين، وذلك يتفق مع ما يؤخذ من رواية الذهبي، ومع ما استنتجنا من صحبته لأبي تراب النخشبي المتوفى عام خمسة وأربعين ومائتين، ولأحمد بن خضرويه المتوفى عام أربعين ومائتين.

لذلك نرجح أن يكون الحكيم الترمذي قد ولد عام خمسة ومائتين، وأنه عَمَّر مائة وخمسة عشر عامًا، وأنه توفي عام عشرين وثلاثمائة للهجرة.

موطنه ونشأته :

ولد الحكيم الترمذي في بداية القرن الثالث في مدينة ترمذ ـ كما يؤخذ من لقبه ـ وهي ـ بكسر التاء والميم ـ كما هو المعروف ـ أو بفتح التاء مع كسر الميم أو ضمها كما هو متداول على لسانهم[3] ـ مدينة من أمهات المدن، بل أجل مدينة على نهر جيحون[4] في ضفته الشرقية بإقليم ما وراء النهر، قيل إن الإسكندر الأكبر هو الذي أسسها[5]، وقد فتحها سنة ٧٠هـ موسى بن عبد الله ابن حازم في عدة يسيرة[6] واستمر على حكمها خمسة

---

(١) نقلاً عن مقدمة الدكتور عثمان يحيى لكتاب «ختم الأولياء» ص ٩.

(٢) انظر مقدمة كتاب «الرياضة وأدب النفس»ص١١، ومقدمة كتاب «ختم الأولياء» ص٩.

(٣) صفي الدين البغدادي : مراصد الاطلاع جـ ١ ص ٢٥٩.

(٤) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٢٩١.

(٥) الدكتور علي عبد القادر : في مقدمته لكتاب «الرياضة وأدب النفس» ص٥ نقلاً عن المؤرخ الفارسي حافظ آبرو.

(٦) البلاذري : فتوح البلدان : ٤٠٢-٤٠٧ ، وكان سعيد بن عثمان بن عفان قد فتحها صلحًا قبل ذلك.

عشر عامًا ، ثم خلفه بعد ذلك عثمان بن مسعود بأمر من الفضل بن المهلب حاكم الولاية[1].

وقد وصفها الاصطخري الكرخي[2] بأنها مدينة على وادي جيحون ، لها قهندز ومدينة وربض ، ويحيط بالربض أيضًا سور ، ودار الإمارة في القهندز ، والحبس خارج القهندز في المدينة في السوق ، والمسجد الجامع في المدينة ، والمصلى داخل السور في الربض ، وأسواقها في مدينتها ، وأبنيتها طين ، ومعظم سككها وأسواقها مفروشة بالآجر ، وهي عامرة آهلة ، وفرضة تلك النواحي على جيحون ، وأقرب الجبال إليها على نحو مرحلة ، وماؤهم للشرب من جيحون ، ونهر يجري من الصغانيان ، وليس لضياعهم من جيحون شرب ، وشرب ضياعهم من نهر الصغانيان .

كما وصفها المقدسي[3] بأنها نظيفة طيبة .... والماء يسطع جانبيها ، وتقلع المراكب إليها من كل جانب ، وهي أول المدائن من أعلى النهر .

ونقل الدكتور علي عبد القادر وأربري[4] عن كتاب «حدود العالم» لمؤرخ جغرافي لبلاد الفرس مجهول الاسم وصفًا لترمذ بأنها مدينة زاهرة وسوق ختلان وشغانيان ، وأنها تنتج الصابون الجيد والحصر المجدولة الخضراء والمراوح .

ولد أبو عبد الله في هذه المدينة ، ولا تحدثنا المراجع التي رجعنا إليها عن طفولته الأولى إلى الثامنة من عمره شيئًا ، أما بعد الثامنة فيحدثنا الحكيم بنفسه في رسالته «بدء شأن أبي عبد الله»[5] عن ذلك ـ في اقتضاب بالغ ـ فيقول : «إن الله تبارك اسمه قيض لي شيخي ـ رحمة الله عليه ـ من لدن بلغت من السن ثمانيًا يحملني على تعلم العلم ، ويعلمني ويحثني

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٠٨ .
(٢) المسالك والممالك ص ١٦٧ .
(٣) أحسن التقاسيم ص ٢٩١ .
(٤) في مقدمة كتاب «الرياضة وأدب النفس» ص ٣ ، ٤ .
(٥) نشرها الدكتور عثمان يحيى في مقدمته لكتاب «ختم الأولياء» .

عليه ، ويدأب ذلك في المنشط والمكره ، حتى صار ذلك لي عادة وعوضًا عن الملعب في وقت صباي».

من كان هذا الشيخ الذي اختصه الحكيم من بين مشايخه بالحديث والإجلال؟؟ ولم يذكر الحكيم اسمه ، ولم تذكر المراجع شيئًا عنه ، وإن ذكر الهجويري في «كشف المحجوب»[1] أن الترمذي قد تتلمذ على شيخ من أصحاب أبي حنيفة الأقربين ، وقد استبعد ذلك المستشرق «نقولاهير»[2] نظرًا إلى أن أبا حنيفة قد توفي عام خمسين ومائة للهجرة ، ونحن نوافقه على استبعاد ذلك ، وإن كان ابن عربي يذكر في فتوحاته المكية[3] أن الترمذي كان حنفي المذهب في الأصل قبل أن يعرف الشرع من الشارع . لكنه على فرض صحة ما رجحناه من تاريخ ميلاد الترمذي وأنه بدأ يدرس عام ٢١٣هـ فإنه ينبغي أن يكون هذا الشيخ قد جاوز حينئذ الخمسة والسبعين حتى يتهيأ له أن يكون قد درس على أبي حنيفة ويدرس للترمذي بعد ذلك ، وهذا في غاية البعد . على أن السبكي يعد الترمذي بين علماء الشافعية ويترجم له في طبقاته[4]. ويذكره بعض نساخ كتبه[5] على أنه كبير الشافعية بالعراق ، ولم أر نقلاً آخر يؤيد هذه الدعوى .

إلى جانب ذلك نجد بين أيدينا طائفة من أسماء أساتذته ذكرتها المراجع أو استخلصت من أسانيده في رواية الحديث ، والناظر إليها يجد معظمها أسماء رواة محدثين ، وما عدا ذلك من أسماء المتصوفين فليس من اليسير تصوير علاقته بهم على أنها علاقة مريد وشيخ ، بل على أنها علاقة صحبة كما صرحت بذلك معظم المصادر ، والحكيم ـ في ترجمته لنفسه ـ لا يذكر أنه تلقى أصول الطريق عن أحد من المشايخ ، بل على العكس من ذلك يذكر أنه حين صحت عزيمته ظل يسترشد في البلاد فلا يجد من يرشده

(١،٢) نقلاً عن المستشرق «نقولاهير» في مقدمته لكتاب «بيان الفرق» ص ٧ .

(٣) جـ ٢ ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٤) جـ ٢ ص ٢٤٥ .

(٥) كما في عنوان كتابه «المسائل المكنونة» وكتابه «تحصيل نظائر القرآن» .

أو يعظه بشيء يتقوى به على أمره[1] ، وإذا أردنا أن نذكر له شيخًا ، فقد يكون هو «أحمد ابن عاصم الأنطاكي» ـ على ما سنذكره فيما بعد[2] ـ وهاك ثبت ببعض الأسماء البارزة لأساتذته التي ذكرتها المراجع عنه :

١- علي بن الحسن الترمذي (والده)

وقد ورد ذكره في تاريخ بغداد[3] على أنه علي بن الحسن بن بشير ابن هارون الترمذي ، وأنه حَدَّث ببغداد عن شداد بن حكيم وصالح ابن عبد الله الترمذي ، وأنه قد روى عنه محمد بن مخلد .

٢- قتيبة بن سعيد الثقفي البلخي

وقد ورد ذكره في تاريخ بغداد[4]، ويؤخذ منه أنه كان يطلب علم الرأي ، ثم وجه إلى تحصيل الأثر ، فبدأ الرحلة منذ كان شابًا ، ورحل إلى العراق والمدينة ومكة والشام ومصر ، وسمع مالك بن أنس ، والليث بن سعد ، وعبد الله بن لهيعة ، وبكر بن مضر ، ويعقوب بن عبد الرحمن ، وحماد ابن زيد ، وأبا عوانة ، وإسماعيل بن جعفر ، وعبد الواحد بن زياد ، وسفيان ابن عيينة .

وروى عنه أحمد بن حنبل ، وأبو خيثمة زهير بن حرب ، وأبو بكر ابن أبي شيبة ، والحسن بن محمد بن صباح الزعفراني ، والحسن بن عرفة ، ويوسف بن موسى ، وأبو داود السجستاني وجعفر بن محمد بن شاكر الصائغ ، وإبراهيم الحربي ، وموسى بن هارون ، وأبو زرعة ، وأبو حاتم الرازيان ، والبخاري ، ومسلم في صحيحيهما ، وخلق سوى هؤلاء .

وكان حسن الخلق ، واسع الرحل ، غنيًا من ألوان الأموال ، من الدواب والإبل والبقر والغنم ، وكان كثير الحديث ، كما كان ثبتًا فيما يرويه ، صاحب سنة وجماعة .

---

(١) ص ١٥ .
(٢) تحت عنوان «سلوكه ومجاهداته».
(٣) جـ ١١ ص ٣٧٣ .
(٤) جـ ١٢ ص ٢٦٤ .

ذكره أحمد بن حنبل فأثنى عليه ، وسئل عنه يحيى بن معين فقال : ثقة ، وقال عنه قتيبة بن سعيد البغلاني : ثقة مأمون ، وقال عنه عبد الرحمن ابن يوسف بن خراش : قتيبة بن سعيد صدوق .

ولد في نحو خمسين ومائة للهجرة . وتوفي عن نحو تسعين عامًا في سنة أربعين ومائتين بقرية من رستاق بلخ تدعى بغلان كان قد أقام بها .

٣- صالح بن عبد الله الترمذي

ذكر في تاريخ بغداد[١]، وفي لسان الميزان[٢]، وقد سكن بغداد ، وحدث بها عن مالك بن أنس، وحماد بن يحيى الأبح، وعبد الوارث بن سعيد، وعبثر ابن القاسم ، وشريك بن عبد الله ، وجعفر بن سليمان ، وفرج بن فضالة ، وعمر بن هارون البلخي وغيرهم .

وروى عنه عبد الله بن أحمد بن حنبل ، وأبو زرعة ، وأبو حاتم الرازيان ، وغيرهم .

قال أبو حاتم : هو صدوق ، وقال ابن حبان في تاريخ الثقات : صالح ابن عبد الله الترمذي صاحب سنة وفضل .

٤- صالح بن محمد الترمذي

وقد ورد ذكره في تاريخ بغداد[٣] ، وفي ميزان الاعتدال[٤] ، وفي لسان الميزان[٥] ، ولا يكاد يختلف في نصه عن الميزان .

وروى عن محمد بن مروان السدي ، وحدث في بغداد أثناء رحلته للحج عن حمدان بن ذي النون ، والقاسم بن عباد الترمذي .

وروى عنه أبو الحسن بن الخلال المقري .

---

(١) جـ ١ ص ٣١٥ .
(٢) رقم ٣٧٦٩ .
(٣) جـ ٩ ص ٣٣٠ .
(٤) الذهبي جـ ٢ ص ٣٠٠ .
(٥) رقم ٣٧٦٩ جـ ٣ ص ١٧٦ .

قال ابن حبان في الضعفاء : لا يحل كتب حديثه ، كان مرجئًا جهميًا داعية يبيع الخمر ويبيح شربه ، رشاهم فولوه [الأصل : فولاهم] قضاء ترمذ ، فكان يؤدب من يقول : الإيمان قول وعمل ، وقال السليماني : هو منكر الحديث يقول بخلق القرآن .

٥- سفيان بن وكيع

وهو سفيان بن وكيع بن الجراح أبو محمد الرواسي كما ورد ذكره في ميزان الاعتدال للذهبي[١] ، ونقل عن البخاري أنهم يتكلمون فيه لأشياء لقنود إياها . وقال ابن أبي حاتم : إن أباه قد أشار عليه بتغيير وَرَّاقه ، فقد قيل : إنه كان له وراق يلقنه من حديث موقوف فيرفعه ، أو مرسل فيوصله ، أو يبدل رجلاً برجل .

قال ابن حبان : مات سنة سبع وأربعين ومائتين ، وكان شيخًا فاضلاً صدوقًا، إلا أنه ابتلي بوراق سوء كان يدخل عليه، فكلم في ذلك فلم يرجع .

٦- الحسن بن عمر بن شقيق البلخي

وهو الحسن بن عمر بن شقيق بن أسماء ، أبو علي الجرمي البصري .

ذكره في تاريخ بغداد[٢] فقال : إنه كان يتجر إلى بلخ ، فعرف بالبلخي ، قدم بغداد ، وحدث بها عن أبيه وعن عبد الوارث بن سعيد ، وجعفر بن سليمان ، وغيرهم ..

كما روى عنه عبد الله بن أحمد بن حنبل ، وأبو زرعة ، وأبو حاتم الرازيان ، وموسى بن إسحاق الأنصاري ، والحسن بن الطيب الشجاعي .

وقال ابن أبي حاتم : سئل أبو زرعة عنه فقال : لا بأس به ، وسئل أبي عنه فقال : صدوق ، وقال أبو أحمد بن فارس : قال محمد بن إسماعيل البخاري : الحسن ، يعني عمر بن شقيق ، صدوق ، كما قال علي بن محمد الحبيبي

---

(١) جـ ٢ ص ١٧٣ .

(٢) جـ ٧ ص ٣٥٥ .

ـ بمرو ـ سألت أبا علي صالح بن محمد جزرة الحافظ عن الحسن بن عمر ابن شقيق فقال : شيخ صدوق .

ويقال إنه مات سنة ثلاثين ومائتين .

٧- أحمد بن خضرويه :

وهو أبوحامد أحمد بن خضرويه البلخي .

ذكره أبو نعيم في الحلية[١]، وأبو عبد الرحمن السلمي في طبقاته[٢]، فذكر أنه من كبار مشايخ خراسان ، ومن مذكوري مشايخها بالفتوة ، صحب أبا تراب النخشبي ، وحاتمًا الأصم ، ورحل إلى أبي يزيد البسطامي .

قيل لأبي حفص : مَنْ أَجَلُّ مَنْ رأيت من هذه الطبقة ؟ قال : ما رأيت أحدًا أكبر همة ، ولا أصدق حالاً من أحمد بن خضرويه .

توفي سنة أربعين ومائتين .

٨ – أبو تراب النخشبي :

واسمه عسكر بن حصين ، ويقال : عسكر بن محمد بن حصين .

وقد ذكره السلمي[٣] والسبكي[٤] والشعراني[٥] في كتبهم عن الطبقات ، وهو من جلة مشايخ خراسان المذكورين بالعلم والفتوة والتوكل والزهد والورع ، ويقول عنه السبكي إنه كان شيخ عصره بلا مدافعة ، جمع بين العلم والدين زاهدًا ورعًا متقشفًا متقللاً متوكلاً متبتلاً .

صحب أبا حاتم العطار البصري ، وحاتمًا الأصم البلخي .

كتب الكثير من الحديث ، ونظر في كتب الشافعي ، وتفقه على مذهبه .

---

(١) جـ ١٠ ص ٤٢ .
(٢) ص ١٠٣-١٠٦ .
(٣) ص ١٤٦ .
(٤) جـ ٢ ص ٣٠٦ .
(٥) ص ٧١ .

وحدث عن محمد بن عبد الله بن نمير ، ونعيم بن حماد ، وأحمد بن نصر النيسابوري وغيرهم ..

وروى عنه أحمد بن الجلاء ، وأبو بكر بن عاصم ، وعبد الله بن أحمد ابن حنبل ، وآخرون .

وكان أبو عبد الله بن الجلاء يقول : لقيت ستمائة شيخ ، ما لقيت فيهم مثل أربعة : أولهم أبو تراب النخشبي ، قال ابن الصلاح : والثلاثة الآخرون : أبوه يحيى الجلاء ، وأبو عبيد البسري ، وذو النون المصري ، رضي الله عنهم .

٩ – يحيى بن معاذ الرازي :

ورد ذكره في تاريخ بغداد[١] ، وطبقات الصوفية[٢] ، والرسالة القشيرية[٣] ، والحلية[٤] .

سمع إسحاق بن سليمان الرازي ، ومكي بن إبراهيم البلخي ، وعلي ابن محمد الطنافسي .

وروى عنه الغرباء من أهل الري وهمذان وخراسان أحاديث مسندة قليلة ، وكان قد انتقل عن الري ، وسكن نيسابور إلى أن مات بها ، وقدم بغداد واجتمع إليه مشايخ الصوفية ، ونصبوا له منصة ، وأقعدوه عليها ، وقعدوا بين يديه يتجاورن ، فتكلم الجنيد فأسكته يحيى قائلاً : مالك والكلام إذا تكلم الناس!! تكلم في علم الرجاء وأحسن الكلام فيه ، وخرج إلى بلخ وأقام بها مدة ، ثم رجع إلى نيسابور وتوفي بها سنة ثمان وخمسين ومائتين .

١٠- يعقوب بن شيبة بن الصلت

وهو يعقوب بن شيبة بن الصلت بن عصفور ، أبو يوسف السدوسي ، من أهل البصرة .

---

(١) جـ ١٤ ص ٢٠٨ .
(٢) ص ١٠٧ .
(٣) ص ١٧ .
(٤) جـ ١٠ ص ٥١ .

ذكره في تذكرة الحفاظ[1]، وتاريخ بغداد[2]، كان من فقهاء البغداديين على قول مالك ، وكان من ذوي السرو ، كثير الرواية والتصنيف .

سمع علي بن عصام ، ويزيد بن هارون ، وروح بن عبادة ، وعفان بن مسلم ، ويعلى بن عبيد ، ومعلى بن منصور ، ومحمد بن عبد الله الأنصاري ، وأبا النضر هاشم بن القاسم ، وأسود بن عامر ، وأبا نعيم ، وقبيصة بن عتبة ، ويحيى بن أبي بكر ، وكثيراً من أمثالهم .

وروى عنه ابن ابنه محمد بن أحمد بن يعقوب ، ويوسف بن يعقوب ابن إسحق بن البهلول .

وكان ثقة ، وصنف مسنداً معللاً لم يتممه .

قال البغدادي : حدثنا أبو مزاحم موسى بن عبيد الله قال : قال لي عمي عبد الرحمن بن يحيى بن خاقان : أمر المتوكل بمسألة أحمد بن حنبل عمن يتولى القضاء ، قال أبو مزاحم : فسأله عمي فأجابه فذكر جماعة ، ثم قال : وسألته عن يعقوب بن شيبة فقال : مبتدع صاحب هوى . قلت : إنما وصفه أحمد بذلك لأنه كان يذهب إلى الوقف في القرآن .

توفي سنة اثنتين وستين ومائتين .

ويعد له الدكتور علي حسن عبد القادر وأربري عدداً آخر من الشيوخ استخراجًا من روايته في رسالتي «رياضة النفس وأدب النفس» وحدهما . ولو ذهبنا نستقصي شيوخه من رسائله وروايته بهذه الكيفية لاتسع الأمر ، ولوجدنا مصداق ما ذكره ابن حجر في لسان الميزان ، نقلاً عن ابن النجار في ذيله على تاريخ بغداد ، من أن في شيوخه كثرة[3]، إلا أنه يكفي ما ذكرناه منهم لمعرفة البحر الذي كان يستقي منه في نشاطه العلمي ، وإن يكن غير كاف لتوضيح أبعاد هذا النشاط ، حيث يظهر لنا في غموض جانبين اثنين من

---

(١) جـ ٢ ص ١٤١ .

(٢) جـ ١٤ ص ٢٨١ .

(٣) جـ ٥ ص ٣٠٨ .

جوانب نشاطه ، هما : جانب رواية الأثر ، وجانب التصوف ، أما الجوانب المختلفة الأخرى ، وأبرزها جانب الفقه ، فلا تكاد تظهر هنا ، وقد يكون ذلك لأن عنايته بها لم تعتبر من حيث هي ، بل من حيث وجهة نظره الصوفية ، بل إن روايته للحديث قد اعتبرت من هذه الناحية ، بسبب منهجه الخاص في تناول ذلك كله ويبدو أن ذلك قد جر عليه كثيراً من المشاكل ، لأنه لم يتناوله الفقه تناول الفقهاء ولا رواية الحديث تناول المحدثين ثم لم يترك ذلك لأهله ، مما أثار ـ على ما يبدو، ومع أسباب أخرى ـ حفيظة علماء بلده عليه ، فتسببوا له في كثير من المشاكل .

وإذا أردنا أن نعزو الحكيم إلى إحدى المدارس الصوفية كما يحلو لبعض الباحثين ، فقد صحب أبا تراب النخشبي ، وأحمد بن خضرويه ، وهما من جلة وأكابر مشايخ خراسان وصحب يحيى الجلاء البغدادي ، وتتلمذ على كتاب الأنطاكي ـ كما سيرد ذكره فيما بعد[1] ـ وهو من شيوخ مدرسة الشام ؛ ذات الصلة الوثيقة بمدرسة مصر ، وكان على صلة وثيقة بمدرسة نيسابور الملامتية .

ولقد مر أبو عبد الله في عدة أطوار خلال حياته الطويلة ، يمكننا ـ بالاعتماد على رسالته في الترجمة لنفسه «بدء شأن أبي عبد الله»[2] ـ تقسيمها إجمالاً إلى ما يلي :

١- **الطور الأول** : طفولته حتى الثامنة من عمره ، وليس في يدنا شيء نعتمد عليه في معرفة هذه المرحلة من حياته ، ولكن باعتبار أنها كانت تمهيداً لما بعدها من التفرغ للدرس الجاد يمكن لنا أن نستنتج أنها لم تكن طفولة عادية ، مليئة بلهو الأطفال وعبثهم ولعبهم ، إذ لا يتصور أن يتعود ذلك ثم يفطم عنه دفعة واحدة دون أن يحدث رد فعل عنيف قد

---

(١) في المبحث الخاص بسلوكه ومجاهداته .

(٢) نشرها الدكتور عثمان إسماعيل يحيى في مقدمته لكتاب «ختم الأولياء».

يتسبب في نفوره من شيخه ومن دراسته ، وهذا خلاف ما حدث ، مما يدل على أن هذه الطفولة كان فيها نوع من التهيئة النفسية والذهنية لفترة الدرس الجاد فيما بعدها .

٢- فإنه **في الطور الثاني** : ويبدأ منذ بلغ الثامنة إلى أن قارب سنه سبعا وعشرين ، تتلمذ على شيخ تعهده بكامل عنايته ورعايته ، وجعل يتخذ كل وسيلة ممكنة يحثه بها على تعلم العلم ، وتكريس وقته كله له .

وإذا كنا لا نعلم شيئًا عن هذا الشيخ ، فإننا نعلم أنه قد وفق أيما توفيق في أن يجتذب انتباه تلميذه بالكلية ، وأن يصرفه عن عادة أقرانه من اللهو واللعب ، بل لقد وفق هذا الشيخ في أن يجعل تلميذه قادرًا في حداثة سنه على أن يجمع بين علم الآثار وعلم الرأي ، وليس ذلك بالشيء الهين أو اليسير .

ولقد ظل الترمذي منصرفًا إلى تحصيل هذين العلمين حتى أثناء توقفه في العراق في طريقه إلى بيت الله الحرام ، عندما قارب سنه السابعة والعشرين ، ولا بد أنه أثناء هذه المرحلة قد حصل كثيرًا من الحديث وعلم الرأي ، وأنه كان يسير على مذهب أهله في البحث والتحصيل والنظر إلى الدنيا ، لكنه لم يكن يشعر بالرضا عن نفسه أو الاطمئنان إلى منهجه ، خاصة وأنه مع اشتغاله كل هذا الاشتغال بتحصيل الحديث وعلم الفقه على طريقة أهل الرأي كان لا يحفظ القرآن .

٣- لذلك **نجده في طوره الثالث** ، ويبدأ بخروجه إلى مكة ، عندما قارب سنه سبعًا وعشرين ، يتجه اتجاهًا مختلفًا ، فنراه يحرص على حفظ القرآن حتى يفرغ منه ، وينصرف إليه بالكلية ، حتى إنه ليقيمه الليل إلى الصباح ، دون أن يمل من قراءته ، بل يجد في قلبه حلاوته ، ثم لا يقرأ بعد ذلك من الكتب إلا ما فيه محامد الرب تبارك اسمه ، ولا يستمع إلا ما كان طريقه الموعظة ، وما يستعان به على أمر الآخرة ، ولا يريد أن

يتتلمذ إلا لأستاذ يرشده الطريق ، أو يعظه بشيء يتقوى به ، لقد بدأ يهجر الاتجاه العقلي الجاف بعد أن حصل منه ما حصل ، ووعى منه ما وعى إلى الاتجاه الروجي الخالص .

ويمكننا أن نسمى هذه الفترة بفترة التحول في حياة الحكيم ، فقد كان تحوله عميقًا وشاملاً لم يترك له شيئًا مما كان منغمسًا فيه من قبل ، إلا وغيَّر نظرته إليه ، واستغرق نفسه في أنواع العبادة من صوم وصلاة وقرآن ، دون أن يتخذ في ذلك منهجًا معينًا أو طريقة خاصة ، ولكن كيفما اتفق ، إلى أن وقع في مسامعه ـ على حد تعبيره ـ كلام أهل المعرفة ، ووقع إليه كتاب الأنطاكي فاسترشد به لشيء من رياضة النفس .

عند ذلك بدأت الفترة التالية من هذه المرحلة الطويلة الشاقة ، وقد أخذ نفسه فيها بالرياضة ودقائقها دون هوادة أو تهاون ، وطلب من يعينه على ذلك من الإخوان فعز عليه ، لكنه لم ييأس في نفسه ، بل لجأ إلى الخلوة والعزلة واجتناب الخلق ، واستمر على ما هو عليه من رياضة ومحاسبة وهو في هذه الأثناء يرى من الرؤى ما يشجعه ويثبته على طريقته ، حتى وفق لبعض الإخوان ، فكانوا يجتمعون بالليالي يتناظرون ويتذاكرون ، ويدعون ويتضرعون .

ويبدو أنه خلال هذه المناظرات والمذاكرات لم يكن يتحرج من الحديث عن تجاربه الصوفية العميقة ، ويتطرق منها إلى نقد قاس لعلماء زمنه في سائر النواحي الدينية ، سواء في علم الرأي ، أو علم الآثار ، أو حتى العلوم الصوفية، مما أحفظ عليه صدور الكثير منهم ، فتعرض لحملة قاسية ، وكثرت القالة في شأنه ، وجعلوا يرمونه بالهوى والبدعة .

ويمكن أن نصنف التهم التي وجهت إليه ، تبعًا لما نقله ابن حجر في لسان الميزان[1] عن القاضي كمال الدين بن العديم في رسالته « الملحة في الرد على أبي طلحة » إلى ما يلي :

---

(١) جـ ٥ ص ٣٠٨ .

١- تهم وجهت إليه من رواة الحديث : بأنه ليس من أهل الحديث ، ولا رواية له ، وأنه ملأ كتبه الفظيعة بالأحاديث الموضوعة ، وحشاها بالأخبار التي ليست بمروية ولا مسموعة .

٢- تهم وجهت إليه من الفقهاء بأنه أدخل في علم الشريعة ما فارق به الجماعة ، وعلل جميع الأمرر الشرعية التي لا يعقل معناها بعلل ما أضعفها وأوهاها .

٣- وتهم وجهت إليه من المتصوفة بأنه كان فيه الكلام على إشارات الصوفية والطرائق ، ودعوى الكشف عن الأمور الغامضة والحقائق ، حتى خرج بذلك عن قاعدة الفقهاء ، واستحق الطعن عليه بذلك والازدراء .

وقد وصل بهم الأمر إلى أن سعوا به إلى والي بلخ ، فبعث إليهم من يبحث هذا الأمر ويحققه ، فاتهموه لديه بأنه يتكلم في الحب ، ويفسد الناس ، ويبتدع ، ويدعي النبوة ، يقول الحكيم[1] : « وتقولوا عليَّ ما لم يخطر قط ببالي ، حتى صرت إلى بلخ ، وكتب على قباله [أي الوالي] أن لا أتكلم في الحب » . ومن هذا التقرير القصير يتبين أنه لم تثبت عليه كل هذه التهم ، وكل ما استطاع الوالي أن يفعله - إرضاء للناس وتهدئة لشعورهم - هو أن يأخذ عليه عهدًا بأن لا يتكلم في الحب . وقد كانت هذه التهمة من التهم الشائعة التي وجهت لكثير من متصوفي عصره .

على أن المسألة إذا انتهت قانونيًا لدى الولاة والقضاة بمثل هذه السهولة ، فإنها لا تنتهي كذلك عند العامة والغوغاء ، بل عند عامة العلماء أنفسهم ، إذ أنهم يظلون لفترة من الوقت منفعلين بتأثير قالة السوء ، وشائعة البهتان ، أو بتأثير الهوى والأغراض الشخصية مما يحجب جلية الأمر وحقيقته ، لذلك أصبح الحكيم بحيث لا يجترئ أن يرفع رأسه خوفًا من العامة .

---

(١) بدء شأن أبي عبد الله ص ١٨ .

٤- ولم يستمر الأمر على ما هو عليه ، بل هاجت بالبلاد فتنة اضطرت جميع من كانوا يؤذونه ويتقولون عليه إلى الهرب ، ولم يعد هنالك منهم من يذكر الناس صباح مساء بهذه التهم ، ويحجب عنهم تحت غشاوتها بريق معدن فضله الصافي ، لذلك لم يلبث أن اجتمع الناس ومعهم مشيخة البلد ببابه ، يكلمونه في القعود لهم ، لكنه كان لا يزال يخشى من شعور العامة نحوه ، ويتوهم من شدة ما شاع فيهم أنهم السقم أكثرهم ، فتردد في إجابتهم ، فألحوا عليه في ذلك حتى أجاب .

وتبدأ هنا المرحلة الخامسة مرحلة الخروج من خلوته وعزلته ، والبروز إلى الناس ، فظهر فضله ، وانتشر ذكره ، واجتمع الناس عليه ، وتزايدوا حتى فاضوا عن داره ، وامتلأت بهم السكة والمسجد ، وما زالوا به حتى قعد لهم في المسجد ، عند ذلك تحقق الناس أن ما كان قد شاع عنه لم يكن إلا أكاذيب وأقاويل باطلة ، فأقبلوا عليه بالتعظيم والتبجيل .

ويبدو أنه في أثناء هذه المرحلة ظهرت أسس الفرقة التي ينسبها الهجويري إليه باسم «الحكيمية والترمذية»[1] والتي يقول إن مأخذ قولها في الولاية هو الترمذي ، ومصداق ذلك ما يقوله الترمذي عن هذه الفترة بأنه «ظهرت التلامذة، وأقبلت الرياسة» .

لقد كثرت تلامذته ، وبلغت موعظته ، وعظم أمره ، ونبه شأنه ، حتى إن هذه الفئة التي كانت فتنته من قبل ، قد وجدت ـ بعد عودتها ـ أن أمره قد استقر ، وأن قولهم فيه بعد ذلك ليس نافذًا أو مقبولاً ، وأن الناس قد تبينوا ـ على حد عبارة الترمذي ـ أن هذا كان منهم بغيًا وحسدًا .

وعلى الرغم مما يقرره الترمذي من كثرة التلاميذ إلا أن التاريخ لم يحفظ لنا من أسماء أتباعه ومريديه إلا عددًا قليلاً ، منهم :

---

(١) كشف المحجوب . نقله عنه أبو العلا عفيفي في كتابه «الثورة الروحية في الإسلام» ص ٢٧١ .

١- أبو محمد يحيى بن منصور القاضي

وقد ورد ذكره في شذرات الذهب[١]. ولى قضاء نيسابور بضع عشرة سنة وكان من أساتذة أبي عبد الرحمن السلمي ، وروى عن علي بن عبد العزيز البغوي ، وأحمد بن سلمة وطبقتهما . وتوفي سنة خمسين وثلاثمائة كما يقول ياقوت في «معجم البلدان» أو إحدى وخمسين وثلاثمائة كما يقول ابن العماد الحنبلي .

٢- أبو علي منصور بن عبد الله بن خالد الذهلي الهروي

وقد ورد ذكره في تاريخ بغداد[٢] ، وهو من أهل هراة . حَدَّث عن جماعة من الخراسانيين بالغرائب والمناكير ، وفد بغداد وحَدَّث بها ، وقال أبو سعيد عبد الرحمن بن محمد الإدريسي : منصور بن عبد الله الهروي كذاب لا يعتمد على روايته .

٣- أبو علي الحسن بن علي الجرجاني

ورد ذكره في طبقات الصوفية[٣]، وحلية الأولياء[٤]، والطبقات الكبرى[٥].

كان من كبار مشايخ خراسان ذوي التصانيف المشهورة ، وقد تكلم في علوم الآفات والرياضات والمجاهدات ، وربما تكلم في علوم المعارف والحكم .

وروى عنه السلمي في رسالته عن الملامتية[٦] أصلاً من أصولهم المعدودة.

٤- أحمد بن محمد بن عيسى

ورد ذكره في صفة الصفوة[٧] ، وتاريخ بغداد[٨] ، وطبقات السلمي[٩] والشعراني[١٠].

---

(١) ابن العماد الحنبلي جـ ٣ ص ٩ .
(٢) جـ ١٣ ص ٨٤ .
(٣) ص ٢٤٦ .
(٤) جـ ١٠ ص ٣٥٠ .
(٥) جـ ١ ص ١٠٥ .
(٦) ص ١٠٨ الأصل رقم ١٣ .
(٧) جـ ٢ ص ٢٢٣ .
(٨) جـ ٥ ص ٦٠ .
(٩) ص ٢٤٩ .
(١٠) جـ ١ ص ٨٤ .

وكان من كبار مشايخ العراق وجلتهم ، وكان من جلساء الجنيد وأقرانه .

صحب سريًّا السقطي ، وأبا فتح الحمال ، وحارثًا المحاسبي ، وبشرًا الحافي ، وطريقته في الورع قريبة من طريقة بشر .

٥- أبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق

ورد ذكره في حلية الأولياء[١] ، وطبقات السلمي[٢] ، والشعراني[٣].

أصله من ترمذ ، ولكنه أقام ببلخ ، وصحب أحمد بن خضرويه ، ومحمد ابن سعيد بن إبراهيم الزاهد ، ومحمد بن عمر بن خشنام البلخي .

أسند الحديث ، وصنف التصانيف المشهورة في أنواع الرياضات والمعاملات والآداب .

ويلاحظ أنه يلقب بلقب الحكيم كما يلقب شيخنا الترمذي أيضًا بذلك .

٦- محمد بن جعفر بن محمد بن الهيثم بن عمران بن بريدة

يقول عنه في تاريخ بغداد[٤] إنه أنباري الأصل، وإنه سمع أحمد بن الخليل البرجلاني ، ومحمد بن أبي العوام الرياحي ، وجعفر بن محمد الصائغ ، وأبا إسماعيل الترمذي ، وروى أيضًا عن إبراهيم بن إسحق الحربي .

وقد حَدَّث عنه أبو الحسين بن الفضل القطان ، وأبو الفرج بن سميكة ، وعلي بن أحمد الرزاز .

قال في تاريخ بغداد[٥] : قرأت بخط علي بن أحمد الرزاز : سألت الشيخ ـ يعني أبا بكر بن الهيثم ـ عن مولده فقال : في شوال سنة سبع وستين ومائتين ، سألت البرقاني عن ابن الهيثم فقلت : هل تكلم فيه أحد ؟ فقال : لا ، قال : وكان سماعه صحيحًا بخط أبيه .

---

(١) جـ ١٠ ص ٢٣٥ .
(٢) ص ٢٢١ .
(٣) جـ ١ ص ٧٨ .
(٤) جـ ٢ ص ١٥٠ .
(٥) ص ٣٧ .

وتوفي في عاشوراء سنة ستين وثلاثمائة .

يقول الدكتور عثمان يحيى في مقدمته لكتاب «ختم الأولياء» : ويبدو واضحًا من هذا الثبت أن حظ شيخنا من الأتباع والمريدين كان ضئيلاً لا يتناسب تمامًا وجلال قدره ، وعظيم خطره .

والظاهر بعد الرجوع إلى ترجمة شيخنا لنفسه من ناحية ، ومطالعة رسائله ومصنفاته من ناحية أخرى ، والتأكد من كثرة التلاميذ الذين يتلقون عنه مباشرة ، أو الذين يتلقون عنه بطريق المراسلة أن ضآلة حظه لم تكن في الأتباع والمريدين ، ولكن في كتب التاريخ والتراجم ، فقد أهملت إهمالاً ملحوظًا أن تعطينا صورة كاملة ـ أو واضحة على الأقل ـ عن الشيخ الفذ الذي ترك آثارًا بينة في الثقافة الصوفية ، عرفنا طرفًا منها مما كان عن طريق كتبه ورسائله ، وجهلنا كثيرًا منها مما كان عن طريق أتباعه ومريديه .

وقد تنبه لهذا الإهمال ابن حجر العسقلاني في كتابه لسان الميزان[1] فقال بعبارة الأسف :« ولم أقف لهذا الرجل (الحكيم الترمذي) على ترجمة شافية ، والله المستعان».

ولهذا أيضًا تظهر قيمة الأثر الذي تركه لنا الحكيم الترمذي في ترجمته لنفسه ، فعلى الرغم مما يعج به هذا الأثر من أخباره خلال المنامات والرؤى التي تراها له زوجه أو يراها له أصحابه كما يقول نقولاهير ، ومن أنه وجيز جدًا ، مقتضب جدًا ، يعج بالأحلام والرؤى ، ولا ينفع غلة الصادي تمامًا ، كما يقول الدكتور عثمان يحيى ، إلا أننا استطعنا من خلاله أن نعرف شيئًا عن تطورات حياته ، وأن نقسمها إلى المراحل التي ذكرناها ولكننا لا نستطيع أن نمضي إلى ما هو أبعد من ذلك إلا بضرب من الحدس والتخمين ، فإنه لا يحدثنا فيه ـ مثلاً ـ عن رحلات قام بها ، أو مؤلفات صنفها ، أو مذهب أسسه ، أو فرقة كونها ، فضلاً عن التاريخ الخاص بكل منها .

---

(١) جـ ٥ ص ٣٠٨ .

ولكننا نعلم من مصادر أخرى أنه رحل إلى نيسابور سنة خمس وثمانين ومائتين ، وحَدَّث بها ، وروى عنه من علمائها يحيى بن منصور القاضي ، كما نعلم أنهم هجروه بترمذ ، فذهب إلى بلخ فقبلوه ، لموافقته إياهم على المذهب ، وفي هذه الحادثة اضطراب ، سنحاول ـ فيما بعد ـ تحقيقه ، في حدود ما لدينا من مصادر[1] ، ولكننا على كل حال نستطيع أن نستنتج أن المرحلتين الأخيرتين من مراحل حياته كانتا موضع الخصب والإثمار ، ففيهما قعد للناس وكثر حوله التلامذة والأتباع، وفيهما كتب ما كتب من رسائل أودع فيها خلاصة آرائه وثمار أفكاره وتجاربه ، وأصبحت بعد ذلك تراثًا ضخمًا ترك آثاره العميقة في تيار الثقافة الإسلامية بعامة والصوفية بخاصة .

ألقابه

نصادف في كتب التراجم التي ترجمت لأبي عبد الله ، وفي عناوين رسائله ألقابًا له بعضها ملازم لا يكاد يذكر بدونها ، وبعضها الآخر يذكر مرة ويهمل مرات ، ولا يهمنا هذا البعض غير الملازم إلا بقدر أنه يصفه بصفات خاصة يرى ذاكرها أنه متصف بها ، إما بحسب رأيه هو ، أو بحسب اعتقاد جمهور العلماء ، كلقب الشيخ والعالم العلامة والمُحَدِّث والزاهد والحافظ والإمام ، وقد ورد الأخير في كثير من رسائله ، منها كتاب ختم الأولياء ، وكتاب بيان الكسب ، وكتاب الفروق ، وكتاب علم الأولياء ، ورسالته في الكلام على معنى لا إله إلا الله ، وكتاب أدب النفس وغيرها ، وقد لقب أيضًا بلقب : المؤذن ، ورد هذا اللقب على صفحة العنوان لكتابه تحصيل نظائر القرآن ، وكتابه المسائل المكنونة ، وفي مقدمة ناشر كتابه نوادر الأصول في معرفة أخبار الرسول ، كما ورد أيضًا عند ترجمة الذهبي له في تذكرة الحفاظ ، وعند ترجمة ابن حجر له في لسان الميزان بصورة توحي أنه من الألقاب الملازمة . وينبغي أن توضع معظم هذه الألقاب في الاعتبار عند

---

(١) في البحث الخاص باضطهاده .

تقديره واعتبار مكانته ، أما الألقاب الملازمة التي لا يكاد يذكر بدونها ، والتي لا تطلق إلا عليه إذا ذكرت منفردة عن اسمه ، فهي الترمذي والحكيم معًا ، ويختلف استعمالها تقديمًا وتأخيرًا ، بل يتغير وضع لقب الحكيم في الاستعمال ، حيث تستعمل أحيانًا قبل الاسم ، وأحيانًا بعده .

ولم أكن أضع في اعتباري أن أفرد مكانًا خاصًا لبحث هذا الأمر ، لاعتقادي بساطته ، وأنه لا يحتاج إلى شيء من العناء .

أما لقب الترمذي ، فلأنه ـ إن لم يكن لقبًا موروثًا ، وقد كان ـ من عادة العلماء أن تنسب العالم إلى بلدته لعدة أغراض ، منها أمانة النقل ، وتمييز المصادر ، ونسبة الشيء إلى صاحبه الحق عند اشتباه الأسماء مع اختلاف البلدان ، وعند توجه النقد بعد ذلك إلى سنده أو متنه ، وغير ذلك من الأغراض العلمية التي لا تكاد تحتاج إلى تنبيه ، ولم يثر هذا اللقب شيئًا من المشاكل يلفت النظر إليه أو إلى البحث فيه .

أما لقب الحكيم ، فقد كان حريًا أن يمر كذلك في هدوء ، بعد التعقيب عليه بكلمة أو اثنتين للتنبيه إلى معناه ، وعلاقته بشخصية المترجم له ، لولا أنه أثار طائفة من الحدس والتكهنات ، إذا اختلفت في مصدرها فإنها لا تكاد تختلف في اتجاهاتها ولوازمها ، وهي دمغ تصوف الحكيم بأنه يستقي من مؤثرات أجنبية على وجه الإجمال ، ومن الفلسفة الإغريقية على أي حال ، مع ما يلزم من ذلك من تدرج إلى نتائج أخرى تتعلق بالفكر الإسلامي بعامة ، مما جعلني أفرد هذه المسألة بهذا البحث ، وأخصها بهذا المكان .

يقول الدكتور عثمان يحيى : لماذا انفرد الترمذي من بين شيوخ الصوفية بهذا اللقب ؟ ألأنه كان «على معرفة بتركيب الجسم» مما يدل على أنه درس الطب؟» [1]. أو لأنه «كان حريصًا على أن يجمع» في حياته وفي تآليفه

---

(١) راجع المقدمة على كتاب الرياضة وأدب النفس ، التي وضعها آربري والدكتور علي حسن عبد القادر ص ١٣ ط . القاهرة سنة ١٣٦٦هـ .

«بين الناحية الروحية القديمة للثقافة الإسلامية وبين المنهج العقلي الذي جد في عصره»[1]. أو لأن الترمذي كان أول مسلم بدت لديه براعم الأفكار الفلسفية الإغريقية ... فكان بالتالي الممهد لمذهب العرفان (La gnose) في التصوف الإسلامي»[2] . و«بهذا مهد السبيل لأعمال الفارابي»[3] ؟

والحكيم : ذو الحكمة[4] : فما هي الحكمة ؟

يورد الدكتور عبد الحليم محمود في بحثه عن هذا الموضوع ـ عند عرضه لمعنى الفلسفة باعتبارها إيثار الحكمة ـ معناها عند ابن سينا ، حيث يعطينا شيئًا من التفصيل والسعة والعموم ، ويعقب على ذلك بأن هذا المعنى العام الذي ذكره ابن سينا والذي يشتمل على الرياضيات والطبيعيات والإلهيات ، كما يشتمل على السياسة والأخلاق هو المعنى العادي الذي يحلو لمؤرخي الفلسفة اليونانية أو الإسلامية أن يذكروه في مبتدأ كتبهم عند تقسيمهم للفلسفة ، وأن ذلك بعيد عن الدقة والتمحيص[5].

وذلك صحيح ، وقد كان عدم الدقة في ذلك سببًا في كثير من النتائج ، وكان منها في موضوعنا استنتاج بعض الباحثين أن تلقيب الترمذي بالحكيم قد يكون بسبب أنه كان على معرفة بتركيب الجسم ، مما يدل على أنه درس الطب .

وبيانًا لهذه النقطة ذات العلاقة الخاصة والمباشرة بشيخنا نود أن نلاحظ :

إن الحكمة غير الطب ، وإن الحكيم غير الطبيب ، وقد يجتمعان في فرد واحد باعتبارين لا باعتبار واحد ، فالحكيم قد يكون طبيبًا إذا تعلم الطب ،

---

(١) انظر مقدمة كتاب الحقيقة الآدمية للترمذي ، نشر عبد المحسن الحسيني ص٧ مجلة كلية الآداب ، جامعة فاروق الأول (إسكندرية) مجلد ٣ سنة ١٩٤٦.

(٢) مقدمته لكتاب «ختم الأولياء» الحاشية رقم ٤ ص ٨ .

(٣) الدكتور علي حسن عبد القادر وأربري في مقدمتهما لكتاب «الرياضة وأدب النفس» ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٤) المعجم الوسيط جـ ١ ص ١٩٠ .

(٥) التفكير الفلسفي في الإسلام جـ ٢ ص ١٠ .

فيدعى طبيبًا كما يدعى حكيمًا ، وقد لا يكون طبيبًا إذا أهمل تعلم الطب ، ويظل مع ذلك حكيمًا : وقد يكون الطبيب حكيمًا ، إذا أعد نفسه هذا الإعداد، وقد يكون خاليًا من الحكمة إذا لم يكن لديه هذا الاستعداد ، فلا يدعى بالحكيم وإن دعي بالطبيب ، على أنه يغلب على من جمع الطب والحكمة أن يلقب بأشرف اللقبين وهو الحكيم ، فالجهة بينهما منفكة .

يقول الدكتور عبد الحليم محمود[1] : إن القدماء والإسلاميين كانوا يطلقون على كل فيلسوف عدة أوصاف فيقولون عن الكندي مثلاً : كان طبيبًا ومهندسًا وفلكيًا ورياضيًا وفيلسوفًا ، ويعنون باستمرار بكلمة فيلسوف شيئًا آخر غير الباحث في الطب وفي الرياضة وفي الفلك وفي الهندسة ؛ إنهم يعنون بكلمة فيلسوف : الباحث في الأخلاق وعلى الخصوص الباحث في الإلهيات .

والذي سبب الخلط بين الطبيب والحكيم أن القدماء كانوا يفترضون في طالب الطب أن يكون مسلحًا بالحكمة ، يقول ابن جلجل في كتابه « طبقات الأطباء والحكماء » تحت عنوان « بقراط »[2] : وعهد في كتاب عهده وأيمانه ألا يكون طالب الطب إلا من أهل العفاف والفضل والرحمة لأبناء جنسه ، وأن يكون حسن الصورة نقي البزة مرتاضًا بالمهن الأربع حكيمًا حسيبًا فهيمًا .

« وقد نقل إلينا ابن النديم ثبتًا بأسماء الكتب التي كان يدرسها المتطببون ، فإذا فيها طب وتشريح وما إلى ذلك ، ثم فيها منطق وأخلاق وبحث فيما وراء المادة ، وكان مما يقرءون كتاب موضوعه أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفًا »[3].

ويقول ابن جلجل أيضًا تحت عنوان « أبولن »[4] ويقال أيضًا « أبلُّه » ، أول حكيم تكلم في الطب ببلد الروم .

---

(١) التفكير الفلسفي في الإسلام جـ ٢ ص ١٥.
(٢) ص١٧ .
(٣) نقله أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام جـ ١ ص ٢٧٣ .
(٤) ص١٥ .

فإذا نحن صرفنا النظر عن أن لقب الحكيم يوضع إلى جوار لقب الطبيب بالنسبة لشخص واحد مما يدل على المغايرة ، وأن كلاً منهما يطلق عليه باعتبار ، ونظرنا حين يكتفي بلقب واحد منهما اختصاراً في الاستعمال ، وهو الحكيم ، لوجدنا أن ذلك باعتباره أشرف اللقبين ، وباعتبار أن الشخص يدعى بأشرف ألقابه وأحبها إليه ، ويستمر الاستعمال على ذلك حتى يصبح هذا اللقب متعارفًا على الطبيب باعتباره محصلاً للحكمة ، والذي جعل هذا الخلط يحدث بالنسبة للطبيب دون الكيميائي والرياضي مثلاً أنه أكثر احتكاكًا بالناس مما يشيع لقبه بينهم ، وأن الحكمة اعتبرت شرطًا مقدمًا على تعلمه الطب، فالطبيب يجب أن يكون فيلسوفًا كما ينقل لنا ابن النديم، وكما عهد بقراط ألا يكون طالب الطب إلا حكيمًا ، كما ينقل ابن جلجل . فلا يلزم من ذلك قصر لقب الحكيم على الطبيب ، إذ أن الطبيب قد حَصَّل الحكمة وأصبح حكيمًا قبل أن يطلب الطب ويصبح طبيبًا .

فالتلقيب بالحكمة لا يحتمل التلقيب بالطب ضمنًا إلا بقرينة من القرائن ، كما إذا اشتهر بذلك أو عرف عنه ، وقد يكون هذا هو السر في أن كثيرًا من المترجمين للفلاسفة يحرصون على وضع لقب الطبيب بجوار لقب الفيلسوف ، عند ترجمتهم لمن يكون فيلسوفًا وطبيبًا معًا ، وذلك خوفًا أن يتبادر إلى الذهن أنه كان فيلسوفًا فحسب ، وأنه لم يكن محصلاً لصناعب الطب .

وعلى ذلك فلا يمكن أن نستنتج أن تلقيب الترمذي بالحكيم كان بسبب معرفته بالطب إلا بقرينة ، وذكر معرفته لأجزاء البدن لا يصلح قرينة على ذلك ، إذ أن معرفة أجزاء البدن من المعارف العامة ، ولأن ذكره لهذه الأجزاء لم يكن على سبيل العلاج الطبي ، بل على سبيل توضيح العلاقة بين الحقائق النفسية وبين الجسم الإنساني على حد تعبير الباحث ـ صاحب هذا الرأي ـ نفسه .

وأقصى ما يمكن الاستدلال به في ذلك ما ذكره في كتاب الفروق عن علاج القرحة كيف يتصرف الطبيب فيه[1] ، وهل يصعب على المقروح ، أو المخالط له ـ خاصة إذا كان قوي الملاحظة ـ أن يلاحظ تصرف الطبيب أثناء العلاج؟! لقد وصف الحكيم أيضًا علاقة الراعي بغنمه ـ في كثير من رسائله ـ وكيف يحافظ عليها ، ويداوي عليلها ، ويجبر كسيرها ، فهل يمكن أن نستنتج لذلك أنه كان راعي غنم ؟ أو أنه كان طبيبًا بيطريًّا ؟ أم الأسهل والأظهر أن نقول : إن كل ذلك قد كان من المعلومات العامة التي يمكن الاطلاع عليها لكثير من الناس ، ولا يطلق عليهم من أجلها لقب الطبيب .

ولقد ذكر لنا الحكيم الترمذي في ترجمته الموجزة لنفسه أنه درس الفلك ، وسار فيه مرحلة هامة ، ثم انصرف عنه بناء على بعض الرؤى ، ولو أنه درس الطب لكان من الأرجح أن يذكر ذلك أو يشير إليه كما ذكر دراسته للفلك ، ولكنه لم يفعل ، مما يقوى وجهة نظرنا في أن جميع ما ذكره مما يتعلق بأجزاء البدن أو معاملة الطبيب للمريض لم يكن يتعدى المعلومات العامة التي لا تغيب عن أمثال الحكيم .

على أن ثبوت معرفته بالطب لا يمنعنا من القول ـ بناء على كل ما ذكرنا ـ بأن إطلاق لقب الحكيم عليه ليس لهذا المعنى .

بقيت الدعاوى الأخرى . وقبل أن نوضح رأينا في ذلك كله ينبغي أن نضع مقياسًا نقيس به ، وقانونًا نحتكم إليه .

إن لقب الحكيم لا يطلق على كل فرد ، بل يطلق على أفراد قلائل من البشر ، فهو إذن من الألقاب الاصطلاحية التي تطلق لمعنى خاص يلاحظ فيمن تطلق عليه ، وينبغي ـ إذن ـ لفهمه وإدراك معناه أن نرجع إلى الاصطلاح فيه ، وهنالك ـ بهذا الصدد ـ نوعان من الاصطلاح ، لا ثالث لهما ،

---

(١) انظر أيضًا وصفه لموقف الطبيب من المريض ١٩٨ أ من المخطوطة المحفوظة في مكتبة ولي الدين .

أولهما : اصطلاح العالم نفسه الذي على أساسه أصبح قابلاً لهذا اللقب .
ثانيهما : اصطلاح طائفة العلماء من أقرانه في ميدانه من العلم والذي على أساسه أمكن لهم أن يطلقوا عليه هذا اللقب ، وقد يستأنس أيضًا باصطلاح طوائف من علماء الفنون الأخرى ، فكثيرًا ما تلتقي المصطلحات وتتقابل مع اختلاف العلوم .

فما هو معنى الحكمة في اصطلاح الترمذي نفسه ، وفي اصطلاح طائفته من العلماء ؟؟

وباعتبار أن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف هما أصل الأصول في كل علم إسلامي فإنه يستحسن أن نورد آية وحديثًا مما يتردد كثيرًا على ألسنة الصوفية ، لنستند إليهما في حديثنا ، يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (البقرة:٢٦٩) وروى القشيري في رسالته بسنده عن إسماعيل ابن أبي خالد عن مكحول موقوفًا قال : «ما أخلص عبد قط أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[١] ، ورواه السهروردي بسنده في عوارف المعارف مرفوعًا قال : حدثنا الحجاج عن مكحول قال : قال رسول الله ﷺ : «من أخلص لله العبادة أربعين يومًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[٢].

ويفسرها الفخر الرازي بقوله : المراد من الحكمة : إما العلم ، وإما فعل الصواب . وبعد أن يروي أربعة وجوه لتفسير الحكمة في القرآن ، أولها : مواعظ القرآن ، ثانيها : الفهم والعلم ، ثالثها : النبوة ، رابعها : القرآن ، يقول : وجميع هذه الوجوه عند التحقيق ترجع إلى العلم ، ثم يقول : وأما الحكمة بمعنى فعل الصواب فقيل في حدها : إنها التخلق بأخلاق الله بقدر الطاقة البشرية ، ومدار هذا المعنى على قوله ﷺ : « تخلقوا بأخلاق الله تعالى»[٣].

---

(١) ص ١٠٥ .
(٢) ص ١٦٣ .
(٣) في تفسيره مفاتيح الغيب ٢/٣٤٧-٣٤٨ .

وإذا كان هذا هوتفسير عالم عظيم من علماء العقل والشرع معًا ، فإننا نجد نظيره لدى أبي طالب المكي في الكتاب المنسوب إليه «علم القلوب»[1] فهو يورد لها أربعة عشر وجها من التفسير تعود كلها إلى هذين المعنيين : العلم والإصابة . فهو يتفق في وجهة النظر مع الفخر الرازي ، وإن أوردها بشيء من التفصيل .

ويلاحظ أن الحكمة هنا قد فسرت تفسيرًا إسلاميًا خالصًا ، ولم تفسر بالتفسير اليوناني الذي يرد ذكره على ألسنة بعض الفلاسفة الإسلاميين ، كتفسير ابن سينا المشار إليه ، والذي جعله يشتمل على الرياضيات والطبيعيات والإلهيات ، أو على ألسنة بعض المحدثين الذي جعله يشتمل أيضًا على علوم الأسرار ـ السحر والطلمسات والكيمياء[2].

ولقد شاعت هذه التفاسير الإسلامية لمعنى الحكمة في كتب التفسير والتصوف مع اختلاف في الإجمال والتفصيل ، وتفاوت بين ذكر بعض المعاني أو حذفها حسب المقام .

فالحكمة شيء أعلى من العلم ، يقول ابن عطاء الأدمي : كل ما سئلت عنه فاطلبه في مفازة العلم ، فإن لم تجده ففي ميدان الحكمة ، فإن لم تجده فزنه بالتوحيد ، فإن لم تجده في هذه المواضع الثلاثة فاضرب به وجه الشيطان[3].

ووسيلة تحصيل الحكمة تختلف عن وسائل تحصيل العلم ، يقول ذو النون المصري : اليقين داع إلى قصر الأمل ، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد ، والزهد يورث الحكمة ، والحكمة تورث النظر في العواقب[4].

ومن هذا النص أيضًا يمكن التعرف على أثرها في الإنسان .

---

(١) ص ١٩-٢٨ .

(٢) أبو العلا عفيفي : التصوف الثورة الروحية في الإسلام ص ١٨ .

(٣) الرسالة القشيرية ص ٢٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٦٥ .

ومصدر الحكمة يختلف عن مصدر العلم ، فالحكمة تنبع من الداخل لا من الخارج ، يقول السهروردي في تفسير قوله ﷺ « ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » : أشار إلى القلب باعتبار أن للقلب وجهًا إلى النفس باعتبار توجهه إلى عالم الشهادة ، وله وجه إلى الروح باعتبار توجهه إلى عالم الغيب ، فيستمد القلب العلوم المكونة في النفس ، ويخرجها إلى اللسان الذي هو ترجمانه[1].

وموضوع الحكمة يختلف أيضًا ، يقول الكلاباذي : فأول ما يلزمه علم آفات النفس ومعرفتها ورياضتها ، وتهذيب أخلاقها ، ومكائد العدو ، وفتنة الدنيا ، وسبيل الاحتراز منها ، وهذا العلم هو علم الحكمة[2].

وعلامة صاحبها غير علامة صاحب العلم ، من ناحية الإقبال على الدنيا وجاهها ، يقول السهروردي في عوارف المعارف : الزهد في الدنيا من ضرورة ظهور الحكمة ، ومن لم يزهد في الدنيا ما ظفر بالحكمة[3].

هذه هي الحكمة في إطار أضيق شيئًا ما عن إطارها العام ، إطار الكتب الصوفية العامة ، ومنها يتبين أيضًا أنها لا تصدر إلا عن معين إسلامي صرف ، وأنها لا علاقة لها بوجه من الوجوه بالحكمة اليونانية ، سواء فسرت بما يتفق وهذا المعنى أو بما يختلف .

فإذا انتقلنا إلى معناها الاصطلاحي لدى الحكيم الترمذي ، فسوف نجد تفصيلات دقيقة نترك عرضها لموضعه في هذا البحث[4] ، ونكتفي بذكر ما هو مطلوب في موضوعنا الحالي مما لا يكاد يختلف عما ذكرناه ، ليتبين لنا على أي وجه من الوجوه أمكن إطلاق لقب الحكيم عليه .

يقول الحكيم في كتابه « نظائر القرآن »[5] : وأما قوله « الحكمة » على كذا وجهًا : فالحكمة : باطن العلم ، فالظاهر للعلماء بأمر الله ، والباطن للعلماء بالله وتدبير الله .

---

(١) عوارف المعارف ص ١٤٩ .
(٢) التعرف ص ٨٧ .
(٣) ص ١٤٩ .
(٤) في الفصل الخامس من الباب الثاني .
(٥) ص ٦٨ أ .

وهو يقصد بظاهر العلم بيان الشريعة للحلال والحرام مما هو فرض على ظاهر بدن الإنسان وبالباطن ـ وهو الحكمة ـ طريق الإخلاص في الشريعة مما هو فرض على باطن الإنسان ، ولا يستغنى أحدهما عن الآخر .

وهذه الحكمة لا يمكن تحصيلها بالطرق العادية ، ولكن بتصفية النفس ، وتطهير القلب ، ورعاية ظاهر العلم حق رعايته ، يقول في كتابه « الفروق »[1] : والعلم ـ أي الظاهر ـ يدرك بالتعلم ، والحكمة لا تدرك [بالتعلم] لأنها من المنة ، فمن أراد أن يمن الله عليه طهر مكانه ، ثم من بعد ذلك تضرع إلى الله ، وترغب بحقيقة الرغبة .

وإذا كان تحصيلها لا يتم بالطرق العادية لتحصيل العلم ، فلأنها لا تأتي من الخارج ، بل تنبع من القلب ، ومعرفة ما يكون مصدره من الداخل في القلب غير معرفة ما يكون مصدره من الخارج يقول في كتابه « إثبات العلل »[2] : إن الله فضل العلماء بهذا العلم ، فمن رعاه حق رعايته آتاه الله ظاهر العلم وباطنه ، فظاهر العلم على اللسان ، وهو حجة ، وباطنهُ في القلوب ، فذلك العلم النافع.

وما يحصل من الحكمة غير ما يحصل من العلم الظاهر ، وكل منهما ذو قدر عظيم ، فبمساءلة العلماء تقوى على معرفة الله تعالى في حدوده وأحكامه...

وبمخالطة الحكماء يفضون إليك أسرار الحكمة ، وهو ما اطلعوا عليه من علم عيوب النفس ودقائق الورع ، وصفاء الصدق ، وتوبة العطايا ، وملاحظة تدبير الله فيه وترك تدبيره[3].

وبذلك تستطيع الوصول إلى منازل القربة وتصبح عبدًا مقربًا[4].

---

(١) ص ٩٧ ش .

(٢) ص ٣٥ أ من المخطوطة المحفوظة بمكتبة ولي الدين .

(٣) شفاء العلل ٦ ب .

(٤) الأكياس والمغترين ص ١٣٨-١٤٠ من المخطوط المحفوظ بمكتبة الظاهرية .

من هذه النصوص يتضح مدى التطابق بين اصطلاح الترمذي واصطلاح جمهور المتصوفين بالنظر إلى معنى الحكمة ، ويتضح بالتالي أن الملاحظة في إطلاق هذا اللقب عليه كانت لهذه المعاني ، وهي معان إسلامية خالصة ، لا تشوبها شائبة من فلسفة أخرى يونانية أو غير يونانية .

ولذلك فنحن نتفق مع الدكتور عثمان يحيى حين يقول[1] : وحكمة الترمذي في تصوفه تبدو في هذا التحليل البارع لطبيعة النفس الإنسانية ، وفي هذا التصوير الرائع لمناهج السلوك الروحي .

كما نتفق أكثر وأكثر مع عبد المحسن الحسيني حين يقول[2] : إنه تناول في مؤلفاته تصوير مذهب جسده في صورة أطلق عليها لقب الحكيم ، ثم حاول هو بعد ذلك أن يكون الصورة الحية الناطقة لهذا المذهب ، فتراه في حياته وقلبه واعتقاده ، ثم تسمى بهذا اللقب دون غيره من ألقاب العلماء .

بقي أن نقول : إن لقب الحكيم لم يطلق على أبي عبد الله الترمذي وحده كما يفهم من تساؤل الدكتور عثمان يحيى حيث يقول : لماذا انفرد الترمذي من بين شيوخ الصوفية بهذا اللقب ؟ وكما يوحي به تلمس الباحثين سببًا لتلقيبه بهذا اللقب كأنه أمر غير عادي أن يلقب به شيخ صوفي ، ولكن أدنى مراجعة لكتب التراجم الصوفية توضح بجلاء أنه لم يكن فريدًا في هذا اللقب ، فممن لقب بهذا اللقب تلقيبًا ملازمًا : أبو القاسم بن محمد الحكيم السمرقندي ، وممن لقب به تلقيبًا غير ملازم : أبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق ، وقد كان من تلامذة أبي عبد الله الحكيم الترمذي كما ذكرنا من قبل .

* * *

---

(١) مقدمته لكتاب ختم الأولياء ، حاشية رقم ٤ ص ٨ .

(٢) المعرفة عند الحكيم الترمذي ص ٣١ .